فتح عكا

(٦٩٠ هجرية — ١٢٩١ ميلادية)

للأستاذ أحمد رمزي باك

جاء في نهاية المقال القيم الذي كتبه الأستاذ محمود عزت عرفة بعدد الرسالة رقم ٦٩٣ أن سقوط عكا بيد المسلمين كان في عهد الملك الظاهر بيبرس ، والحقيقة أن الفتح تم في عهد الملك الشهيد الأشرف صلاح الدين خليل بن الملك المنصور سيف الدين قلاوون في سنة ٦٩٠ هجرية ١٢٩١ ميلادية ، وقد تم على يده فتح صور وصيدا وبيروت وغيرها من مدن الساحل فأعادها إلى الاسلام ، وأطلق على هذه الحروب إسم الفتوحات الأشرفية ، واستمر المسلمون قرونا بالساحل والجبل يؤرخون بهذا الفتح فيقولون تم هذا في أيام الفتح الأشرفي أو بعده أو قبله . وفي بيروت حيّ مشهور اسمه حيّ الأشرفية نسبة إلى ملك مصر الشهيد الأشرف خليل بن قلاوون ، وقد ذكر جيبون المؤرخ الانجليزي نهاية هذه الحروب وهذا الفتح فقال : « ساد سكون محزن على امتداد ذلك الساحل الذي ظلّ أزمانا طويلة ميدانا تسمع فيه قعقعة سيوف نضال العالم » .

وهذا الفتح من أهم الفتوحات الاسلامية التي منّ الله بها على مصر الاسلامية في أزهى عصورها بل جعل منها دولة مهيبة الجانب يخشاها العدو ويرهبها الصديق ، وبقيت موضع رعب أوربا حتى موقعة امبابة أيام نابليون .

ويقول ابن الفرات في كتابه إن سلطان مصر لما عزم على التوجه إلى حصار عكا أمر بجمع العلماء والقضاة والأعيان والقراء بتربة والده الملك المنصور وهي لا تزال بالقاهرة إلى اليوم وتعدّ تحفة من تحف الفن الاسلامي العربي ومفخرة من مفاخر ذلك العصر . أرجو أن تذهب لرؤيتها وإشباع النظر بها .

قال إنهم اجتمعوا في ليلة الجمعة الثامن والعشرين من صفر من هذه السنة ، وباتوا بالقبة المنصورية يقرأون القرآن الكريم ، وحضر الملك الأشرف إلى التربة في بكرة نهار الجمعة وتصدّق بالهبات وفرّق على القراء والفقراء أموالا كثيرة غير الكُسَى والهدايا التي وزعها على أهل المدارس والرباطات والزوايا . كأنه كان يودع والده حينما عزم على التوجه للجهاد .

وفي الثامن من ربيع الأول نزل السلطان من القلعة وتوجه بالعساكر المنصورة إلى دمشق وسار منها حتى نزل على عكا وحاصرها وسدّ الطرق عليها ، وكان الفرنجة لما بلغهم مسير الجيوش الاسلامية المصرية وعزم السلطان على محاصرة مدينتهم في قلق زائد ، ولذلك كتبوا إلى ملوكهم وسألوهم النجدة . فاجتمع لديهم جموع من مختلف مللهم ونحلهم . ويقول السير وليم موير « إن جزيرة قبرص بعثت بنجدة إليهم » ، ولكن الذي يظهر من كلام المؤرخين المعاصرين أن أكثر النجدة أتت إليهم من الأرمن المقيمين بالمشرق .

وليس في عزمي شرح المعارك التي ظهر بها المسلمون على الصليبيين في آخر عهدهم ، ولا ذكر القتال يوماً بعد يوم وتتبع الشهداء والقواد وأهل الرياسة من جند مصر والشام فتلك ملحمة من ملاحم الاسلام أجمع لها المواد ليوم قريب بإذن الله ؛ كما أنه ليس في العزم أن أكتب عن الملك الشهيد الأشرف خليل وحياته ، ولذلك تمرّ على ذلك مرّاً ، ونكتفي بشهادة بعض المعاصرين نقلا عن صاحب النجوم الزاهرة .

قال النويري : « كان ملكا مهيباً شجاعاً مقداماً جسوراً جواداً كريماً » .

وقال الذهبي : « لو طالت أيامه لأخذ العراق وغيرها . فانه كان بطلا شجاعاً مقداماً مهيباً عالي الهمة » .

وقال صاحب النجوم « وجمهور الناس على أنه أشجع ملوك الترك قديماً وحديثاً بلا مدافعة ، ثم من بعده الملك الناصر فرج ابن الملك الظاهر برقوق ، وشهرتهما في ذلك تغني عن الاطناب في ذكرهما » .

ولقد كان الأمير بيبرس المنصوري شاهد عيان لمعركة عكا ،

ولذلك أطنب فى وصفها ووضع ذلك فى كتابه « زبدة الفكرة » وقال إن هذا الفتح العظيم جاء فى يوم الجمعة المبارك السابع عشر من جمادى الآخرة من سنة ٦٩٠ ، وإن عكا انتزعت من يد المسلمين فى عهد صلاح الدين سنة ٥٨٧ ، وبقيت بيد الصليبيين ١٠٣ سنة ، وختم كلمته بقوله : « لله الحمد على انتصار المسلمين واستظهار الموحدين بهمة أولى الهمم العلية ، والعزمات المنصورة المنصورية (نسبة إلى المنصور قلاوون) الأشرفية (نسبة إلى الأشرف خليل) ، ولا شك فى أن هذه الطائفة أربت على الأول ونالت بها الدولة من النصرة والنضرة ما لم تنله الدول » .

ويصف السير وليم موير فى كتابه « تاريخ دولة المماليك » سقوط آخر معقل للصليبيين بالشرق والحقد يأكل قلبه فهو لا يترك نقيصة إلا ألصقها بالمسلمين وملكهم فيقول : « حتى الفرسان الذين وُعدوا بأن يفسح لهم طريق النجاة أمر السلطان بقطع رقابهم جميعاً بدون رحمة ، وأن ما لاقاه أهل بيروت من إهدار دمائهم وقتلهم صبراً لا يقل فظاعة عما وقع فى عكا » . يسوق كل هذا ولا يبين لنا أسباب هذا الغدر من الجانبين .

ولقد احتفلت العاصمتان مصر ودمشق بهذا الفتح الأشرفى العظيم ، ولما دخل الأشرف مدينة دمشق زينت له الشوارع وأقيمت القباب وأقواس النصر ، ودخل وبين يديه الأسرى من الفرنج تحت الخيول وفى أرجلهم القيود وأعلامهم منكسة ، ولما دخل مصر شق المدينة من باب النصر إلى باب زويلة ، وأقيمت له الاحتفالات الشائقة .

ولما كثرت الأقاويل والروايات عن هذا الفتح ، وصرح كثيرون أنهم تنبأوا به قبل وقوعه ، وقال بيبرس المنصورى : « ولما أتاح الله هـذا الفتح وسهله وأباحه وعجّله قرظه الشعراء ، وذكره الفضلاء » .

وقد اطلعت فى كتاب ابن الفرات على الكثير من القصائد التى قيلت أعجبنى منها بعض الأبيات أنقلها لقراء « الرسالة » .

فمن قصيدة الشيخ بدر الدين محمد بن أحمد بن عمر المنجى التاجر المقيم بالقاهرة :

بلغت فى الملك أقصى غاية الأمل
وفُقت شأو ملوك الأعصر الأول
ونلت بالحول دون الناس منفرداً
ما لم تنله ملوك الأرض بالحيـل

وهى طويلة فيها العربية السهلة وبعض الألفاظ العامية ومن الغريب أن يأتى بعد خمسة قرون من ينحو نحوها ويقول :

ماذا أقول وكيف القول فى ملك
قد فاق كل ملوك الأعصر الأول

وقال القاضى محيى الدين بن عبد الظاهر أظنه صاحب سيرة الملك الظاهر :

يا بنى الأصفر قد حل بكم نقمـة الله التى لا تنفصل
قد نزل الأشرف فى ساحلكم فابشروا منـه بصفع متصل

وكتب القاضى شهاب الدين أبو الثناء محمود الحلبى كاتب الانشاء قصيدة أطول من كل هذا نحا فيها نحو صاحب قصيدة « السيف أصدق أنباء من الكتب » ، وقلّد عباراته وتشبيهاته جاء فيها :

بشراك يا ملك الدنيا لقـد شرفت
بك الممالك واستعلت على الرتب
فانهض إلى الأرض فالدنيا بأجمعها
مدّت إليك نواصيها بلا نصب
أدركت ثأر صلاح الدين إذ غضبت
منه لسر طـــواه الله فى اللقب

إن عكا مدينة عزيزة على القلب بذكرياتها ، اقلب صفحات الفتح الأشرفى فاقرأها بجانب صفحات من عاصر صلاح الدين وعاين قلقه على جنوده المحاصرين بقلعتها . أمضيت أياماً أسجل من سيرته تنقلاته فى التلول المقابلة لسهول عكا ، وأتابع تلك النفس العظيمة ، ولذلك كنت كلما مررت بهذه الجهات يخفق قلبى وتهتز نفسى شوقاً إلى أرواح الشهداء الذين ماتوا على تلك البقعة التى تجمع مع الطهارة الخلود فى نفس كل مسلم .

أحمد رمزى